الحضور المغربي في المتوسط
خلال القرن السادس عشر الميلادي

بصراوي يحيى

باحث دكتوراه في التراث والتاريخ
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
فاس – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

انطلقنا في هذا العمل من مناقشة فكرة الحضور المغربي في عرض الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط خلال القرن السادس عشر، وذلك على أساس أهمية الفترة المعنية بالدراسة والتي توافق مرحلة التغيرات الكبرى التي عرفها العالم عشية تحول الحركة الملاحية من المتوسط إلى المحيط الأطلنطي، وكذلك على أساس أن المرحلة تعتبر مرحلة انتقالية بين عصر التفوق في العصر الوسيط وعصر التراجع في العصر حديث والمعاصر، أي أن غياب المغرب على معترك الصراع العالمي في المتوسط منذ نهاية العصر الوسيط أدى به إلى تدشين مسلسل التراجع والأفول الذي كلل في بداية القرن العشرين بالخضوع للاستعمار الفرنسي.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢١ مارس ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: ٩ يونيو ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

الإمبراطورية العثمانية، القوى المتوسطية، السعديين، المغاربة والبحر، البحرية الأوروبية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بصراوي يحيى، "الحضور المغربي في المتوسط خلال القرن السادي عشر الميلادي".- دورية كان التاريخية.- العدد السابع والعشرون؛ مارس ٢٠١٥. ص ٩ – ١٧.

مُقَدِّمَةْ

شهد الحوض المغربي للبحر الأبيض المتوسط في القرن الخامس عشر الميلادي وبداية القرن السادس عشر الميلادي أحداث سياسية وعسكرية حاسمة في تاريخ هذه المنطقة، حيث ظهر جليًا أن الوجود الإسلامي في الأندلس كان يلفظ أنفاسه الأخيرة بفعل حركة الاسترداد والضغط المسيحيين من جهة، وبفعل ضعف السند المغربي الذي كان مسلمو الأندلس يعتمدون عليه في الأوقات الحرجة من جهة أخرى. وتدل هذه المعطيات الجديدة على أن موازين القوى بين ضفتي البحر المتوسط اختلت لصالح المسيحيين في الشمال مستفيدين في ذلك من وسائل التقدم المادي والتقني والعلمي. لقد أظهرت هذه المستجدات التي شهدها الحوض الغربي للمتوسط في هذه المرحلة أن الشعوب في ضفتي الحوض تخطو الخطى في اتجاهين متعاكسين تقريبا، إذ كشفت وبجلاء عن مرحلة جديدة في العلاقات بين هاتين الضفتين وعن موازين القوى فيهما تمثلت من جهة في بروز ملامح التفوق الأوروبي، ممثلاً في الدولتين الأيبيريتين. وكأن الضفتين تبادلتا الأدوار، فلم يعد المسلمون في الجنوب هم الذين ينتقلون إلى الشمال ويتدخلون في أموره، وإنما إذا العكس هو الصحيح، حيث أن زمام المبادرة انتقل إلى الأيبيريين الذين غدوا لاعبين أساسيين في المسرح السياسي بدمل المغرب عامة وبالمغرب الأقصى خاصة، وذلك بفضل احتلالهم لمعظم الثغور الساحلية وأحوازها، المتوسطية منها والأطلنطية وذلك في الفترة ما بين (١٤١٥) و(١٥١٩م).

أدى هذا الهجوم الأيبيري على البلاد الإسلامية في شمال إفريقيا إلى تدخل الإمبراطورية العثمانية، التي كانت تسعى إلى ضم ما تبقى من بلاد الإسلام لتشكل جهة موحدة في مواجهة المسيحيين في الضفة الشمالية لغرب المتوسط، خاصة بعد أن نجحوا في طرد البرتغاليين من مياه الخليج العربي والبحر الأحمر، وهو مشروع وإن كان يسعى إلى توحيد الأمة الإسلامية غير أنه يتنافى مع نية السلطة المغربية في الحفاظ على استقلالها. وبذلك استطاعت الدولة العثمانية التقدم غربا من دون صعوبات كبيرة،[1] حيث أزاحوا الأيبيريين من المغرب الوسط ثم المغرب الأدنى، ليبقى المغرب

الأقصى الوحيد في شمال إفريقيا بين ثلاث إمبراطوريات شاسعة يصارع من أجل البقاء، رغم ما كان يعانيه داخليا من أوضاع مزرية سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، فقد عاش النظام السياسي في المغرب على عهد الوطاسيين أزمات بسبب الصراع على العرش، وانشغال الحكام بالسلطة وإهمال إعادة بناء الدولة وتوحيدها، والعناية بالجهاز الإداري وبالجيش والأسطول الذي أصبح يشكل أساس قوة القوى المتوسطية؛ العثمانية والإسبانية على وجه الخصوص، خاصةً خلال القرن السادس عشر الميلادي وما بعده حيث سيكون للقوة البحرية كلمتها في قوة الدولة واستمرارها. فكيف كان حضور المغرب خلال القرن السادس عشر في عض البحر الأبيض المتوسط، وكيف يمكن تقييم هذا الحضور إذا صح وجوده بين هذه القوى الكبرى في المتوسط؟

أولاً: مسألة حضور المغرب في المتوسط خلال القرن السادس عشر من عدمه

١/١- المغرب وتأثيراته في أحداث المتوسط السياسية والاقتصادية خلال القرن السادس عشر

أ- في عهد بني وطاس:

شكلت بداية العصر الحديث مرحلة تسارعت فيها الأحداث بالمنطقة المتوسطية واتجهت إلى تغيير موازين القوى التي كانت لصالح الضفة الجنوبية في العصر الوسيط، فأصبح المغرب غير قادر على مسايرة القوى الإقليمية في المتوسط على الأقل منذ منتصف القرن الخامس عشر وإلى غاية منتصف القرن السادس عشر، حيث " ... كان يعيش أزمة خانقة فرضت عليه الانكماش والانعزال والانزواء وتسببت في خلخلة هياكله وبناه الأساسية وزعزعتها وضربت في العمق ذهنية سكانه، فتراجعت السلطة المركزية وفشل الوطاسيون في صيانة وحدة البلاد وظهرت كيانات سياسية وعسكرية جهوية مستقلة أو متصارعة (...) كإمارة شفشاون بقيادة علي بن راشد وإمارة المنظري بتطوان...".[٢]

أول إشارة يمكن الحديث عنها في مسألة حضور المغرب في المتوسط خلال القرن السادس عشر الميلادي هي ما حصل عندما تمكن الإسبان من السيطرة "على أهم الموانئ [بالمغرب الأوسط] مثلاً المرسى الكبير ووهران..."،[٣] حيث لم يحصل رد فعل مغربي على هذا الفعل الإسباني لأنه بالتأكيد أمر خطير أن تصل إسبانيا إلى حدود المغرب دون أن يكون هناك رد فعل مغربي وإنما جاء رد الفعل هذا من الطرف العثماني "والمتمثل في المعارك التي قادها الأخوان عروج وخير الدين (بربروسا) ضد الإسبان برًا وبحرًا"،[٤] وفي حقيقة الأمر أن بداية التراجع المغربي في مسرح الأحداث بالمتوسط بدأ منذ أن تخلى المرينيون عن جوازاتهم للأندلس، حيث تمكن البرتغال من احتلال سبتة سنة ١٤١٥م، كما تمكن الإسبان من القضاء على آخر تواجد للمسلمين بالأندلس سنة ١٤٩٢ إثر سقوط غرناطة، وما تلى ذلك من توالي احتلال الثغور المغربية في بداية القرن السادس عشر، فاهتمام المرينيين ومَنْ جاء بعدهم بضمان أمن المغرب الداخلي لإيمانهم بأن مستقبلهم السياسي رهين بواقع المغرب لا خارجه شكل بداية انطواء المغرب على نفسه وقبولهم الضربات الأوروبية الناهضة،[٥] وهكذا تمكن البرتغاليون في مدة لا تتجاوز قرن إلا قليل (ما بين ١٤٣٨ و١٥١٥) من السيطرة على كل الموانئ المغربية في البحر المتوسط.[٦]

ويلاحظ على ردود الفعل المغربية إزاء الغزو المسيحي أنها في البداية كانت سلبية وضعيفة، حيث لم ترق إلى مستوى المواجهة والتحرير، واللذين لا يتوافقان إلا بطرد المحتلين،[٧] "... كما أن مسألة التحرير في حد ذاتها لم تعط أهمية كبرى ومحورية من قبل الحكام (...) الذين غالبًا ما كانوا يتقاعسون لأسباب أو لأخرى"،[٨] ولعل هذا ما جعل المؤرخ المجهول يتحدث عن "ضعف أمر بني مرين [الوطاسيين] في المائة التاسعة وعجز المؤرخين عن [تقييد] قبيح ما ظهر في وقتهم وسيرتهم وانحطاطهم في أعين الناس [حيث] انقطعت أخبار محاسنهم وخمدت نارهم وقصرت حركاتهم وسكوتهم عن الجهاد...".[٩]

إن ضعف الوطاسيين على تمثيل المغرب كدولة محترمة السيادة أمام القوى المتوسطية الأخرى أدى إلى بروز مجموعة من الحركات السياسية كحركة الجازولي والمنظري وبنو راشد، والتي حاولت إزعاج القوى البحرية الأوروبية على الخصوص في عرض المتوسط وعملت على تحرير الثغور المحتلة، حيث يشير الوزان إلى الدور الذي لعبه المنظري انطلاقًا من مدينة تطوان في مواجهة الأوروبيين إذ يقول "... وكانت له بعد ذلك حروبًا لا تنقطع مع البرتغاليين وكثيرًا ما ضيق الخناق على سبتة والقصر وطنجة"،[١٠] كما نجد عند إبراهيم حركات إشارة أخرى للدور الذي أصبحت تلعبه تطوان على مستوى الجهاد البحري ومضايقة السفن الأوروبية بعد وصول أبي الحسن علي المنظري إليها، إذ يقول: "وعزموا على أن يتخذوها خطًا هجوميًا ضد التدخل المسيحي"،[١١] ويضيف إلى أن هناك وثائق وتقارير فيما يتعلق بمسألة تبادل الأسرى بين البرتغال وتطوان، تتكلم عن أن "مركب وصل إلى إشبيلية في ٢٩ أكتوبر ١٥٢٣ به خمسة وعشرون من النصارى البرتغال الذين أطلق سراحهم وكانوا بتطوان"،[١٢] وفي نفس السياق تكلم محمد داوود عن وجود مستندات في السجل الوطني الإسباني تؤكد لنا ما ذهب إليه إبراهيم حركات،[*] وهذا ربما ما يؤكد وجود نشاط بحري مغربي مكثف على السواحل المغربية بل وحتى الإسبانية.

لكن بالنظر إلى إشارات أخرى وتحليلها نجد أن من كان يقوم بعمليات الجهاد البحري والأسر هم أناس خارج نطاق الدولة وإرادتها، هذا فضلاً عن أن هذه الحركات التي تولت أمور البحر المتوسط نيابة عن الدولة لم تكن بتلك القوة التي كانت عليها الدول الأخرى كإسبانيا والإمبراطورية العثمانية والبرتغال، وهذا ما جعل المغرب يكون بمثابة الحاضرة الغائبة في نفس الوقت، وهذا ما نستشفه من كلام مارمول كربخال الذي تحدث عن قوة تطوان

بقوله: "... تضاف إلى ذلك خمس عشر سفينة صغيرة كان السكان يملكونها ويهاجمون بها سواحل إسبانيا وبواسطتها استطاعوا منذ قريب أن يحركوا لثورة في بعض جهات غرناطة. وقد اهتم بذلك ملك إسبانيا فيليب الثاني فأمر قائد قواته بالحرية بإشبيلية أن يهذب ويغرق مصب نهر تطوان (...) [باعتباره مصدر قوة هؤلاء القراصنة] وقد تم هذا العمل دون أن يستطيع أهل البلاد أن يحولوا دون ذلك..."،[١٣] فالمغرب في هذه المرحلة لم يكن قادرًا على درء الخطر، فكيف نتصور له وجود ودور في المتوسط؟ فعلى عهد محمد البرتغالي لم يكن المغرب "حرًا في اختيار حلفاءه فهو لا يتوفر على إمكانيات كافية تساعده على مواجهة النصارى بشكل ناجح، لذلك فقد كان مضطرًا إلى السماح بوجود مراكز متعددة لجهاد النصارى".[١٤]

وأمام هذه الحالة التي أصبحت عليها الدولة المغربية، أصبح على السلاطين الوطاسيين أن يسعوا جاهدين لتدارك الأوضاع وإلا شكل ذلك خطرًا عليهم. وهو الشيء ما أقدم عليه محمد الوطاسي عندما تزوج بالست الحرة حاكمة تطوان وزوجة المنظري الثالث بعد وفاته سنة (٩٤٨هـ/١٥٤١م)، وهذا ما شهد به مؤرخو الإفرنج في ذلك العهد حيث صرحوا "بأن زواج السلطان الوطاسي بالست الحرة إنما كان لتوطيد المن في هذه الربوع من المغرب"،[١٥] وعلى ذكر الست الحرة، فقد ذكر محمد داوود أنه في رسالة من جان الثالث ملك البرتغال للتوسط بين حاكم سبتة والست الحرة، كتب إليه سبستيان رسالة وفيها أن الست الحرة كانت قد سمحت للمراكب التركية بالدخول إلى تطوان الخ...، وهو ما يدل على أنها كانت تباشر الأعمال الخارجية حتى مع الدول الأجنبية،[١٦] وهذا ما يؤكد ما ذهبنا إليه سابقًا عن ضعف الدولة وعدم قدرتها على لعب دور هام على المستوى الخارجي.

إن الحديث عن الحضور المغربي في المتوسط خلال النصف الأول من القرن السادس عشر هو حديث عن الدور الذي قام به الوطاسيين على هذا المستوى، بحكم أنهم الملوك الشرعيين للبلاد نظريًا على الأقل، لكن بعد تصفحنا لمجموعة من المصادر والمراجع المتعلقة بالموضوع وجدنا أن معظمها يتحدث عن زاوية الهجمات البرتغالية أو الإسبانية على السواحل المغربي، بل وحتى على المستوى التجاري نجد عبارات تدل على أن السفن الأوروبية في معظم الأحيان هي التي كانت تتجه إلى المغرب للتبادل والاتجار. لذلك نستطيع القول؛ إنه رغم وجود حركات سياسية حاولت صد الهجمات الأوروبية، فإن المغرب خلال هذه المرحلة دخل مرحلة الجهاد الدفاعي بعدما كان متزعمًا ومتبنيًا الجهاد الهجومي في الأندلس.[١٧]

ب- في عهد السعديين:

أول ما يشير إليه عبد الكريم كريم في مقدمة تحقيقه لكتاب الفشتالي "مناهل الصفا" هو أن التنافس من أجل السيطرة على البحر الأبيض المتوسط كان بين ثلاثة أقطاب، العثمانيون والإسبان والبرتغال، في حين يشير. ضمنيًا . إلى أن المغرب خلال هذه المرحلة لعب دور المقاوم فقط، ولم يكن طرفًا في نزاع المتوسط في القرن السادس عشر، بل كان يرد الأخطار الخارجية فحسب، ونستشف هذا المعطى من قوله: "... عرف _أي المتوسط_ صراعًا بين الإمبراطوريات الثلاث: الأتراك العثمانيون في الشرق الإسلامي، والإسبان والبرتغال في الغرب الإسلامي من أجل السيطرة والتحكم في حوض المتوسط وقد تمركز الصراع منذ منتصف هذا القرن في الشمال الإفريقي، وبلاد المغرب الأقصى بوجه خاص (...) وأمام هذه الأخطار الخارجية برزت القيادة السعدية التي تزعمت الجهاد الوطني لرد الأخطار الخارجية..."،[١٨] وفي الوقت ذاته نجد محمد حجي يتحدث عن حالة المغرب التي أصبحت تسترد عافيتها لكن ذلك لم يتم على حد قوله: "بين عشية وضحاها، وإنما ظل يتقدم ببطء مع انتشار نفوذ السعديين بتعثره مرة ونهوضه أخرى ليستوي قائمًا في النصف الثاني من القرن العاشر"،[١٩] لكن محمد حجي ربما في هذه العبارة كان يتحدث عن التحسن في الميادين المختلفة داخليًا، في حين لا يشير بأي إشارة واضحة لتحسن دور المغرب على المستوى المتوسطي وحضوره فيه، فما قصده ربما هو الوضع الداخلي وظروف عيش السكان.

لقد عاش المغرب بعد توحيد البلاد سنة ١٥٥٤م "ربع قرن في شبه ركود سياسي [شكل مرحلة انتقالية ظهرت بعدها مشاكل من نوع جديد يرجع بعضها للأحوال الداخلية، وبعضها الأخر يتصل بالمؤثرات والعلاقات الخارجية، خاصة مع جيرانه من أتراك ومسيحيين] إذ يبدو أن السعديين كانوا قد أعطوا الأولوية في المجابهة للأتراك (...) في حين كانوا يرون في سياسة الانكماش البرتغالية من جهة، وفي مناقشة الإسبان الدائمة للأتراك بالمغرب الأوسط من جهة أخرى، ما يدعوهم إلى قبول تعايش شبه سلمي معهم ولو إلى حين".[٢٠] ومن هنا يتضح أن السعديين بدورهم فضلوا عدم دخول غمار الصراع بالبحر المتوسط وربما هذا ما جعل السعديين لا يقومون بأي محاولة لاسترجاع باقي الثغور المحتلة، فهذا عبد الله الغالب "يمالئ الإسبانيين سرًا أو يغض الطرف عنهم على الأقل ليستولوا على حجرة بادس بالقرب من مليلية حتى لا يجد الأتراك الذين كانت سفنهم آنذاك تصول وتجول في الغربي للمتوسط، منفذًا يتسربون منه إلى المغرب"،[٢١] وبمعنى آخر لم يكن المغرب مستعدًا لمواجهة القوى الكبرى في المنطقة ويدافع عن حقه في أن يلعب دورًا رياديًا في للمتوسط أو على الأقل ليبرز موقعه كقوة لا يستهان بها من طرف أقطاب المتوسط آنذاك.

إن مجرد تقرب السعديين بقيادة محمد القائم من الإسبان لطرد الأتراك من الجزائر أو على الأقل لدرء خطرهم، يعني تفوق الأتراك على المغرب، لأن إسبانيا إذا ساعدت المغرب ستساعده بحرًا وليس برًا، بمعنى أن القوة البحرية المغربية آنذاك لم تكن قادرة على مواجهة الأتراك العثمانيين، فمثلما كان تحالف الإسبان مع الجنوبيين ضد الأسطول البحري العثماني في معركة لبانتى دليلاً

على عدم قدرة الإسبان وحدهم على مواجهة العثمانيين بحرًا، ولو تتبعنا كذلك التقارب المغربي الإنجليزي خلال الربع الأخير من القرن السادس عشر من أجل القضاء على الدور الذي كان لإسبانيا في المتوسط سوف نلاحظ أن حضور المغرب في حلبة الصراع، كان ضعيفًا ويستوجب بالضرورة قوى أخرى محالفة له.

إذا افترضنا أن المغرب بعد خضوعه للسعديين أصبح يستجمع قواه . كما ذهب إلى ذلك محمد حجي . وينظر إلى مكانته المفقودة في البحر المتوسط، فمن الضروري التساؤل عن **أهم ما أقدم عليه المغرب في هذه المرحلة. ولعل أبرز حدث شهده المتوسط آنذاك هو معركة ليبانتو سنة ١٥٧١، فما هو موقع المغرب منها؟ وكيف كانت مساهمته؟**

قبل الإجابة عن هذا السؤال يجب القول؛ بأن المغرب لحد تلك الساعة لم يكن على أهبة الاستعداد للقيام بأي دور فيها، فكما هو معروف أن عبد الملك المعتصم وأحمد الذهبي فرا من المغرب خوفًا من أخيهما عبد الله الغالب إلى الجزائر، بمعنى أن أمر مشاركة المغرب بقيادة عبد الله الغالب إلى جانب الأتراك أمر مستبعد خاصةً وأن الغالب اتبع نفس سياسة والده محمد الشيخ تجاه الأتراك، وأمر استتباب الأوضاع والسيطرة عليها لم يكن مضمونًا، لأن عبد الملك لا زال بالجزائر يعد العدة للعودة إلى المغرب والسيطرة عليه، ويشير عبد المجيد قدوري إلى أن عبد الله الغالب تبنى "بعدما خلف أباه سياسة الابتعاد عن الأتراك والحذر منهم وفي المقابل حاول الاقتراب من إسبانيا تحسبا لأي طارئ"،[٢٢] أهم ما نقرأه من موقف عبد الله الغالب أنه لم يكن ليقدر على مواجهة الأتراك وحده وهو ما دفعه إلى اللجوء إلى إسبانيا وهو ما يدل على أن حضوره وقوته في المنطقة ليستا بمستوى العثمانيين ولا حتى بمستوى إسبانيا نفسها. لأنه ليس من المنطقي لأي أحد أن يطلب العون من شخص أقل منه قوة، لذلك نقول أنه إلى حدود ١٥٧٢ على الأقل لم يكن المغرب ليجاري القوى المتوسطية الكبرى وعلى رأسها الأتراك والإسبان.

بالعودة لمعركة ليبانتو نسجل أن عبد الله وأحمد الذهبي شاركًا في صنع الأحداث فيها إلى جانب الأتراك، وفيما يخص مشاركة المغرب، فحتى إذا سلمنا بقدرة المغرب على المشاركة فيها فلماذا لم يشارك؟ هناك احتمالين للإجابة عن هذا السؤال، الأول أن عبد الله الغالب لم يرد الدخول في المعركة مع أي جانب والتزم الحياد، وهو احتمال وارد، "لاسيما وأن التحالف البندقي في سنة ١٥٧١م حول مواجهة الأتراك والمناطق الخاضعة لهم دفاعًا وهجومًا كان يستثني المغرب ولم يجعله مستهدفًا"،[٢٣] لأنه من الطبيعي إذا دخل إلى جانب أي طرف وخسر سيكون لذلك عواقب وخيمة خاصة وأن البلاد لا تتحمل أي مشاكل أخرى، أما الاحتمال الآخر فهو أن المغرب ليس له ما يقدمه في هذا النزاع، وبالتالي يكون قد لعب دور المتفرج فقط في هذه المرحلة.

قد لا نبالغ إذا قلنا بأن معركة وادي المخازن بدورها تشكل دليلاً على أن المغرب لم يكن بتلك القوة التي كانت لها القوة الأوروبية والعثمانية ي المتوسط، وإلا لما استطاع البرتغال الوصول إلى الأراضي المغربية والتوغل فيها ولا إلى حصر الأمر على المستوى البحري أو على الأقل محاولة إبقاء الحرب في السواحل، بمعنى أن البرتغاليين لم يتجرءوا على المغرب إلا بعد أن ترك أبوابه مفتوحة بدون أسطول قوي يدافع عنها. لقد عاش المتوسط في الثلث الأخير من القرن السادس عشر أحداثًا مهمة ارتبط بها ارتباطًا عضويًا، واستطاع أن يندمج في السياسيات المتوسطية بداية من مشاركة عبد الملك في معركة ليبانتو على جانب العثمانيين ووقوعه في الأسر لدى الإسبان وما استطاع أن يقوم به من علاقات مختلفة حتى مع رجال العرش الإسباني، والتي ساعدته على فك أسره ثم مشاركته الفعالة في القضاء على الاحتلال الإسباني في تونس، وبهذا تكونت له شخصية صقلتها أحداث المتوسط، وعرف كيف يتسرب إلى داخل المنظمات السياسية التي تتحكم في المتوسط وعلى رأسها الإسبان والعثمانيين،[٢٤] وما إن تمكن من الحكم حتى "أسس أسطول وزع قطعه على موانئ الشمال والعرائش وسلا".[٢٥]

قد نبدو متناقضين في أفكارنا المتعلقة بحضور المغرب على الساحة المتوسطية قبيل معركة وادي المخازن عندما اعتبرنا أن المعركة في حد ذاتها تشكل دليلاً على عدم توفر المغرب على أسطول يحمي ثغوره ويسد أبوابه، في الوقت الذي نأتي فيه بمعطيات حول عبد الملك وعلاقته بالقوى المتوسطية الأوروبية منها والعثمانية، لكن ما أوردناه من معطيات هي في الحقيقة تؤكد بعضها البعض، فعدم قدرة عبد الملك على إثبات نفسه كقوة بحرية في المتوسط هو ما يفسر ربما لجوؤه إلى طرف دبلوماسية لكسب الوقت من جهة وعدم مواجهة قوة أوروبية هو في غنى عنها، على الأقل إلى حين تمكنه من أمور البلاد، فالرجل على ما يظهر كان على دراية بأن قوة الدولة ومكانتها عند الدول الأخرى مرتبطة بمدى تحكمها في البحر وقوة أسطولها، لذلك نجده كما يشير إلى ذلك المؤرخ المجهول في قوله: "وأمر بإنشاء السفن في سلا والعرائش وأدخل القرصنة وصار أهل الأندلس يسافرون في البحر مع أهل المغرب وضايقوا بالنصارى أشد تضييق وكثرى الغنائم"،[٢٦] إن ما قام به عبد الملك يبقى عبارة عن محاولة لاسترداد ما كان للمغرب في هذا البحر من قوة حاول الأوروبيون وغيرهم إجهاضها لكن هذه التجربة تبقى كبداية لما سيأتي فيما بعد.

لقد ساهمت معركة وادي المخازن في إعطاء المغرب سمعة طيبة على المستوى الدولي جعلت الدول الأوروبية تغير من نظرة الاحتقار التي كانت تنظر إليه بها، وهذا ما يختلف جذريًا عن الأوضاع العامة التي مرت بها العلاقات المغربية الأوروبية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر،[٢٧] "ومنذ ذلك الحين [أي من انتصار المخازن] أصبحت العلاقات الخارجية للمغرب أبعد ما تكون عن علاقة الدولة المنهزمة أمام الدول المستعمرة، بل أصبحت

علاقة المشاركة الفعالة في الأحداث التي كانت تهز المنطقة كمشاكل الخلافة في البرتغال، ومشاكل الخصومات بين إسبانيا وإنجلترا وبين هذه الأخير وفرنسا الخ".[٢٨] ولكن رغم وجود إشارات كثيرة عن حضور المغرب في عرض المتوسط خلال هذه المرحلة التي أعقبت معركة وادي المخازن نتيجة استقراره ونشاط اقتصاده وتنويعه، فإن مسألة عدم قدرته على استرداد ثغوره المحتلة طرحت أكثر من سؤال: هل لأنه كانت لديه أولويات أخرى كغزو السودان مثلاً للتقوي بما فيه الكفاية لمواجهة قوى المتوسط التي استطاع بعضها الوصول إلى أراضي جديدة لم تكن معروفة وخبرت بحرًا أكثر ظلامًا من المتوسط، أم لرغبته في الحفاظ على عنصر الجهاد الذي يحقق للسعديين استمرار المشروعية السياسية، فما دامت بعض الثغور محتلة فإن ذلك يعني استمرار الولاء والبيعة، أم لاستعمالها في إطار سياستهم الخارجية للتعبير عن حسن نيتهم في ربط علاقات سياسية ودية مع إسبانيا والبرتغال وتجاوز أسباب الصراع الدفين وتكون في الوقت ذاته رسالة موجهة لباب العالي في حالة ما إذا فكر في التحرك لغزو المغرب.[٢٩]

من الصعب الإجابة عن هذه الأسئلة، ولكن من الواضح أن معركة وادي المخازن أعادت توزيع الأوراق من جديد وغيرت الكثير في خريطة الدول المسيطرة على البحر الأبيض المتوسط، فبعض "الوثائق التاريخية [المأخوذة] من المجلس العسكري الإسباني المنعقد يوم (١٦ غشت/ أغسطس ١٥٧٨) قد أسند مهمة الدفاع عن مدن سبتة وطنجة وأصيلا . وهي قواعد احتلال برتغالي . على القائد أنطونيو مانسو (Antonio Manso)، كما أن القوات الإسبانية المرابطة في جنوبي إسبانيا قد أمرت بأن تكون على أهبة الاستعداد لرد أي خطر خارجي ضد أيبيريا من قبل المسلمين".[٣٠] وفي نفس الاتجاه نجد الفشتالي يتحدث عن عزم المنصور على استرداد الأندلس وما قام به من محاولات لاستغلال الصراع القائم بين الإسبان من جهة والإنجليز والفرنسيين والهولنديين من جهة أخرى، وكيف أن الأسطول المغربي قد أصبح قوة يخشى بأسها في الدفاع والهجوم، وقد قام الأسطول المغربي بهجومات على جزر كناريا وأحرز انتصارات عديدة بها،[٣١] وربما أن القوة التي ظهر بها المنصور بعد معركة وادي المخازن يؤكدها المؤرخ المجهول بقوله: "ثم أمر [سلطان النصارى] بإقامة هدية البحر وأن يتفضل عليهم بأمانه فأنعم لهم بذلك ووفى بعهد معهم".[٣٢] إن هذه السهولة في الاستجابة لطلب النصارى من طرف المنصور تطرح علامة استفهام كبيرة تندرج ضمن مسألة عدم قدرة المنصور على استرداد الثغور المحتلة وما طرحناه من أسئلة متعلقة بها فيما سبق.

لم يركز أحمد المنصور على تقوية دولته على المستوى الخارجي ليثبت نفسه كقوة فاعلة في أحداث المتوسط، واستمر في سياسة التأرجح بين القوى الكبرى في المتوسط، جريًا على عادة من سبقه من الملوك الوطاسيين والسعديين، تارة يقف ضد الإيبريين ويلوح دائمًا بإعلان الجهاد والاستعانة بالعثمانيين، وتارة يلتقي معهم عندما يهم العثمانيون بالتحرك عسكريًا في اتجاه الغرب المتوسطي، كذلك فعل مع الإنجليز في الثلث الأخير من القرن السادس عشر، عندما دخل الإنجليز وبقوة حلبة الصراع الدولي في المتوسط[٣٣] خاصةً بعد انتصارهم على أسطول الأرمادا الإسباني سنة ١٥٨٨، فسعى جاهدًا إلى استغلال علاقاته التجارية مع الإنجليز للتخلص من خطر الإسبان.

إذا كنا في ختام هذا الشق قد ذهبنا في طرحنا إلى اعتبار أن حضور المغرب في المتوسط كان غائبًا أو على الأقل خافتًا جدًا يمكن إهماله، فإننا سنحاول في الشق الثاني من هذه الدراسة دعم هذا الطرح بمناقشة الدعائم التي من الممكن أن تعتمد عليها الأطروحة المعاكسة لما ذهبنا إليه بكل اقتضاب، خاصةً فيما يتعلق بضرورة توفر ظروف داخلية مستقرة ومساعدة على لعب دورًا مهمًا على الساحة الدولية، وكذا المجهودات المبذولة على مستوى التسلح والرقي بالقوة والأسطول البحري، وغير ذلك من الشروط اللازمة لهذا الحضور.

ثانيًا: الشروط اللازمة للحضور في المتوسط

١/٢- أوضاع المغرب الداخلية وانعكاساتها على قوته الخارجية

أ- الوضعية السياسية والأمنية:

لقد خرج المغرب من القرن الخامس عشر منهك القوى بعد سلسلة من الأزمات السياسية الحادة التي عرفها منذ منتصف هذا القرن، وقد ورث الوطاسيون تركة ثقيلة لا يحسدون عليها حيث كانت البلاد مفككة والأطماع الخارجية محدقة بها ممثلة في دول قوية مما جعل تحدياتها كبيرة ومواردها محدودة للغاية، لذلك لم يكن غريبًا أن يفشل الوطاسيون في بسط نفوذهم على جميع البلاد وقنعوا في العديد من الجهات بمجرد الاعتراف بهم، وقد كان لضعف سلطة الوطاسيين بفاس وعجزها عن صيانة المن والدفاع عن البلاد أثر بالغ في انتشار الفوضى والفتن مما أدى إلى تجزئة المغرب إلى وحدات سياسية شبه مستقلة بعضها أملتها ظروف الجهاد ومقاتلة العدو المحتل للسواحل وبعضها شعر ببعد مركز الحكم وضعفه، والبعض الآخر كان مضطرًا على المهادنة والدخول تحت حماية المحتل.[٣٤]

لقد شكلت التمردات والاغتيالات السياسية إحدى المشاكل والأزمات السياسية التي هزت المغرب في هذه المرحلة ومنعته من مسايرة تحولات عصره، بالإضافة إلى التدخل الأجنبي الذي ساهم بشكل أو بآخر في تقزيم دوره في البحر المتوسط خاصة احتلال سبتة ومليلية وغيرهما من الجزر والمواقع الاستراتيجية،[٣٥] في ظل عدم تمكن الوطاسيين من صياغة استراتيجية دفاعية منظمة لمواجهة تلك الأخطار، ليزداد الوضع السياسي سوءًا مع دخول السعديين حلبة الصراع السياسي وبروز لعبة القوة الإقليمية، وعلى أية حال؛ فإن هذه الأوضاع المتردية ترتب عنها انعدام خطير للأمن وانعكست سلبًا على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية.

ب- الوضعية الاقتصادية والاجتماعية:

تأثرت أوضاع المغرب الاقتصادية بحالة التجزئة والفتن السائدة في داخل البلاد، وبما عرفه المحيط الدولي من تغيرات في تلك الفترة من حروب الاسترداد والمد العثماني في شمال إفريقيا، فضلاً عن تدهور تجارة القوافل وأعمال الزراعة بفعل الاضطرابات الأمنية والجو الذي تسوده الفتن والفوضى، وبذلك اضطربت المظاهر الاقتصادية ولم يبقى أثر للنشاط الاقتصادي الذي عرف به المغرب في مجال المبادلات التجارية مع بلدان المتوسط،[٣٦] وقد عانى المغرب خلال نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر -حسب ما جاءت به المصادر المعاصرة- من مجاعات مهولة دامت مدد متفاوتة وأدت إلى وفاة العديد من السكان، ومن الملاحظ أن هذه المصائب كانت تكرر كثيرًا وتطول مما كان يجعل الدولة تواجه مصاعب كبيرة في التنظيم والتخطيط.

ففي بداية القرن السادس عشر الميلادي كانت السلطة المركزية ضعيفة مما جعل بعض الزوايا تحل محل الدولة في تحمل العبء، ويظهر توالي الأزمات بشكل خطير على الأجيال المتعاقبة، ذلك أن المتتبع لما جاء في المصادر من إشارات في الموضوع يلاحظ أن عدد السكان قد انخفض مقارنة مع ما كان عليه خلال القرون الماضية، وقد أدى ذلك على تناقص اليد العاملة في الزراعة وبالتالي تقلصت المساحات المزروعة وتراجعت كمية الإنتاج وانتشر الترحال على حساب الاستقرار والعمران،[٣٧] حيث يذكر الوزان أن بعض القرى والمدن أصبحت عبارة عن أطلال مهجورة لا يسكنها إنسان،[٣٨] ومع وصول السعديين إلى الحكم استمرت الحالة الاقتصادية على ما كانت عليه رغم بعض الانفراج الناتج عن التباعد بين سنين الأزمات وعن الاستقرار النسبي الذي وفرته الدولة الحاكمة.[٣٩]

لقد عكست صعوبة العيش وظروف الرعية المزرية في كثير من الجهات مدى الركود الاقتصادي الذي كانت تعاني منه البلاد، ومحدودية تبادل الإنتاج والرواج التجاري في الداخل وصعوبة التصدير إلى الخارج، ومن البديهي أن هذه للوضعية انعكست سلبًا على مداخل الدولة (الوطاسية والسعدية)، فلم يبقى أمامها إلا الإفراط في فرض الضرائب المختلفة والرفع من قيمتها، وعلى الرغم من أن المغرب خلال بداية القرن السادس عشر وقبله كان يعيش أوضاع اقتصادية واجتماعية مزرية نتيجة للكوارث الطبيعية والمجاعات والأزمات السياسية، إلا أنه عرف وخاصةً في آخره رواجًا تجاريًا مع الخارج بشكل لم يفرع له نظير من قبل، وهو ما يشير إليه إبراهيم حركات نقلاً عن ماسون (Mason) بقوله إن المغرب كان "يروج أعظم حركة تجارية في الشمال الإفريقي".[٤٠]

٢/٢- قوته الحربية على المستوى البحري

لقد أورد الحسن الوزان في كتابه أن الدون فرناند ملك إسبانيا قام "بإرسال أسطول (...) فاحتل جزيرة قبالة بادس، فاستغاث أمي بادس بملك فاس الذي أرسل عدد من الجنود المشاة لمهاجمة الجزيرة لكنهم أرهقوا كثرا (...) واحتفظ النصارى بالجزيرة إلى أن أرسل ملك فاس من جديد جيش بعد مرور أحد عشر عاما، فسقطت الجزيرة في أيدي المسلمين بسبب خيانة جندي إسباني قتل [قائد الأسطول] الذي زنى بزوجته (...) وكان ذلك سنة ١٥٢٠ للميلاد".[٤١] وما نستنتجه من كلام الوزان أن الوطاسي أرسل قوة برية دون دعم قوة بحرية لمواجهة أسطول بحري مجهز بكل أنواع الأسلحة، والسؤال الذي يطرح نفسه هو أين الأسطول المغربي لدرء الخطر؟ وبالمقابل نجد المصادر تتحدث على أن المنظري وغيره ممَنْ تولوا أمور الجهاد البحري، قد أنشئوا أسطولاً أمكنه أن يضايق لأمد طويل سفن البرتغال والإسبان في عرض المتوسط ولم يقبل الرئيس المنظري ولا بنو راشد الهدنة التي عقدها محمد الشيخ وملك البرتغال ألفونسو الخامس عند احتلال هذا الأخير لأصيلا، وتمكن بنو راشد والمنظري من تحطيم عدد من السفن البرتغالية في حوض أصيلا.[٤٢] إن توفر المغرب على أسطول بحري كبير وقوي يتطلب منه توفير موانئ كبرى وهو ما لم يتوفر عليه المغرب خلال القرن السادس عشر، فمما قَرَأْنَاهُ عن الصراع التركي المغربي أيام محمد الشيخ، أن السلطان سليمان القانوني، بعد رفض محمد الشيخ الدعاء له، أمر وزيره بتجهيز العمارة للمغرب أي الأسطول، فجمع وزيره أهل الدولة واستشارهم في توجيه الأسطول إلى المغرب، فاستصعبوا عليه الأمر لما فيه من الخطر للعمارة وقلة المنفعة غذ مراسي المغرب لا تحمل المراكب العظيمة.[٤٣]

يذهب البعض إلى إرجاع سبب عدم قدرة المغرب خلال القرن السادس عشر على مزاحمة القوى الكبرى في الحوض الغربي من المتوسط إلى سوء التنظيم العسكري . الذي حاول السعديون تداركه، وإلى اعتماده على القبائل وغياب جيش نظامي وعدم التوفر على السلاح... "وإذا كان السعديون قد نجحوا في تكوين جيش بري قوي مكنهم من السيطرة على الصحراء الشاسعة وما وراءها من بلاد السودان فإنهم لم يتمكنوا من إعادة بناء الأسطول المغربي الذي أفل نجمه ذهاب عز المرينيين، رغم ما قام به أحمد المنصور بصفة خاصة من إحياء دار صناعة السفن الموحدية برباط سلا واستجلب إليها من أوروبا كلما تحتاج إليه من أدوات ومواد حديثة بل واشترى سفن إنجليزية جاهزة ليعزز الأسطول المغربي الذي جُعل مقر قيادته العرائش (...) ومع ذلك لم نسمع صدى يذكر لنشاط الأسطول الحربي أيام السعديين..."،[٤٤] إلا ما أشار إليه الفشتالي بقوله: "مما نستطرد لكم ذكره على وجه البشرى (...) إعلامكم أن عدو الدين طاغية قشتالة (...) لما آنس من تلقاء جنابنا العالي نار العزم تلتهب التهاب (...) وهممنا (...) قد همت بتجديد الأسطول والاستكثار من المراكب (...) وعلم أن الحديث إليه يساق..."[٤٥] لقد جاء هذا الحديث بمناسبة دعم إسبانيا لثورة الناصر، ولا يهمنا الآن إن كانت نية المنصور العبور إلى إسبانيا أم لا ردًا على دعمها لثورة الناصر، لكن ما يهمنا هو أن المنصور لا يمكنه الحديث بهذه اللهجة إذا لم تكن له القدرة على ذلك، ولكن طيلة الفترة التي قضاها المنصور في الحكم لم تقع أي مواجهة بحرية بين

المغرب وجيرانه مما يزيد من غموض معرفتنا بالأسطول المغربي لهذه الفترة.[٤٦]

٣/٢- الطبقة البرجوازية في مغرب القرن السادس عشر

ارتبطت قوة أوربا بالطبقة البرجوازية المحركة لاقتصاد القارة وجعلت هذه الطبقة قوتها أداة لفرض طموح لا يتوقف يحركه هامس السيطرة، فمنذ القرن السادس عشر أصبحت للتجار مكانة معترف بها في المجتمعات الأوروبية بل [إن] طبقتهم لا غنى للمجتمع عنها، كما سبق وأن دعمت هذه الطبقة من التجار الاكتشافات الكبرى، فمثلا "اعتمد كريستوف كولومبو في رحلته البحرية للعالم الجديد على مساهمة الأبناك الإيطالية وبالخصوص على عائلة برارد في فلورنسا التي ساهمت بنصف تكاليف رحلته".[٤٧] لكن بالنسبة للمغرب فالسلطان هو مَنْ كان يتحكم في شؤون البحر وحتى مسألة الجهاد البحري التي كانت تقوم به جهات شعبية لا علاقة لها بالسلطة خاصة في مراحل ضعف هذه الأخيرة، لم يكن ليتطور بالشكل الكبير نظرًا لغياب دعم مادي قوي يجعل هذه الحركة البحرية تتطور وتنضج، وذلك لغياب فئة قادرة على تمويل هذه الحركة البحرية، ولعل هذا ما يفسر ضعف التواجد المغربي بالمتوسط كقوة مهابة الجانب في أوقات الشدة والأزمات حيث تضطر السلطة للاهتمام بالشؤون الداخلية في ظل تناقص المداخيل.

وإذا رجعنا بشيء من التحليل إلى الدواعي التي أدت بالمنصور إلى التوجع للسودان وترك الجهاد البحري كما عبر على ذلك المؤرخ المجهول، لوجدنا أن المنصور كان يدرك جيدًا الفرق بينما ما يتطلبه الجهاد من أموال ضخمة ستخدم في إنشاء الأسطول وصيانته حتى يلعب دور كبير في الساحة الدولية آنذاك، وبين ما يتطلبه غزو السودان، وهو ما نجد له صدى عند بروديل عندما نجد يتحدث عن ارتفاع أسعار النقل البحري في نهاية القرن السادس عشر وخسارة الطرق البحرية صراعها أمام الطرق البرية،[٤٨] فضلاً على ما سيوفره السودان وثرواته للمغرب من مكانة تجارية عند الأوروبيين تجعله بين ضفرين ينعم بنوع من الأمان من طرف الدول المتنافسة على تجارته، دون أن يحتاج لأن يخسر كل تلك الأموال حتى يحقق ذلك الأمان، وهنا تدخل مسألة الرغبة وخوض غمار الصراع في البحر المتوسط.

ولكن هذا لا يمنع من القول حسب ما رآه عبد الكريم كريم، أن هناك من الإشارات ما يدل على وجود طبقة برجوازية ناشئة على الأقل، خاصةً في عهد المنصور نظرًا للأموال التي تكدست لها في عهده كما يشير إلى ذلك الفشتالي بقوله: "حتى صار بلك في عداد الأغنياء وأهل الثروة والرفاهية"،[٤٩] لكن يبدو أن رجال التصوف في العصر السعدي حضوا بمكانة كبيرة وتمتعوا بامتيازات لم يكونوا في استعداد للتنازل عنها، حتى لو كان ذلك من أجل دعم مشروع يرمي إلى تقوية الأسطول البحري كما حصل مع السلاطين السعديين الذين حاولوا إنشاء قطع بحرية اعتمادًا على الضرائب التي رفعت قيمتها.[٥٠]

٤/٢- الوجود المغربي في المتوسط خلال القرن السادس عشر (مسألة الرغبة)

يرى بعض الباحثين أنه رغم فشل الحركات السياسية كحركة المنظري وبنو راشد كانت تجعل من قضية تصفية الحضور الأجنبي بالبلاد المغربية أحد أهم أسباب قيامها حتى وإن فشل أغلبها في تحقيق أهدافها، إلا أن ذلك يعطي فكرة وتعبيرًا عن إرادة ورغبة الجميع في تخليص البلاد من الاحتلال والرد على الأعداء المسيحيين الذين طردوا المسلمين من الأندلس،[٥١] وفي الاتجاه نفسه نجد أحمد بوشرب يتحدث عن بروز رغبة أكيدة لدى المغاربة منذ مطلع القرن السادس عشر على المستوى الشعبي أولاً ثم على المستوى الرسمي ثانيًا (بعد سنة ١٥٤٩)، لركوب البحر من جديد ردًا على هجمات المسيحيين وأن هذا النشاط الجهادي ارتكز على الموانئ التي بقيت حرة كالعرائش وتطوان وسلا، ويسوق لذلك دلائل استنبطها من شهادة الإجباريين البرتغاليين، مثلا دوكويش الذي تحدث عن أن مجاهدو العرائش أسروا سنة ١٥١٦م سفينة كرافيلا برتغالية قبل دخولها أصيلا، وكذلك فعل مجاهدو تطوان في السنة نفسها، كما أشار الرجل إلى الأدوار الطلائعية في ميدان الجهاد البحري التي قام بها أخوان من تطوان اسمهما (Xacros) وما ألحقاه من ضرر في المنطقة الممتدة بين سبتة والعرائش وجبل طارق، كما أنه اعترف أن المسلمين المغاربة كانوا حاذقين في أمور الرحب.

كما أشار إخباري آخر "لويش دوسوزا" على الحروب البحرية التي دارت بين مجاهدين من تطوان والعرائش من جهة والأسطول البرتغالي المكلف بمراقبة المضيق من جهة أخرى، وتضيف محاضر محاكم التفتيش حقيقة بالغة الأهمية أن هذا النوع من الجهاد لم يقتصر على سكان المدن الساحلية ذوي العادات البحرية، بل شمل أشخاصًا ينتمون إلى مناطق كضواحي القصر الكبير أو مراكش أو ترو دانت أو فاس،[٥٢] وهناك شهادات متعددة من هذا القبيل يمكن الرجوع إليها في هذه المقالة لأحمد بوشرب. بالموازاة مع ما سبق هناك من الباحثين من يرجع سبب عدم قدرة السعديين على إنشاء أسطول على مستوى أسطول الموحدين والمرينيين على عزوف المغاربة عن التعود على ركوب البحر، والاهتمام بالصناعة البحرية لفترة طويلة. حتى إذا سلمنا بوجود تصور عام بوجود المغرب في المتوسط، ينبغي التساؤل عن أهدافه من هذا الوجود في تلك الفترة؟ إننا سنجد أنفسنا أمام هدفان لا ثالث لهما، إما حضور من الجهاد وهي مسألة لم تعد موجودة أساسًا بدليل أنه لم يتم تحرير حتى الثغور المغربية، وحتى وإن وجدتا إشارات عن عزم المنصور على التوجه للأندلس فإنها سياسة يحتمها منطق الواقع ومتطلبات الظروف السياسية، أما الهدف الثاني فهو من أجل التجارة وفي هذا يبدو أن المغرب استبدل الأدنى بالذي هو خير واتجه إلى السودان.

خاتمة

حاصل القول؛ أن الأوضاع المزرية التي كان يعيشها المغرب أيام الوطاسيين خلال القرن السادس عشر، لم تسمح له بأن يلعب دورًا مهمًا على مستوى البحر المتوسط باسم الدولة الوطاسية، لأن حضور رجال الجهاد البحري وعلى رأسهم بنو راشد والمنظري... هم مَنْ كانوا يواجهون الأساطيل المسيحية التي كانت تحوم في المياه المتوسطية وإن كانت هناك من الإشارات ما يدل على أن الوطاسيين كانوا يحاولون ضبط أمور الجهاد وجعلها تحت رعايتهم، إلا أنها لا تكفي إلى الاتجاه في القول بأن الدولة المغربية كانت ذات مساهمة فعالة على مستوى الأحداث التي عرفها المتوسط إبان هذه المرحلة عبر التحكم في حركة الجهاد البحري على الأقل، أما بعد صعود السعديين إلى المشهد السياسي في المغرب خلال أواسط القرن السادس عشر الميلادي وردت إشارات مهمة على أنهم قاموا بتأسيس أساطيل بحرية وتوجيه مجموعة من الأحداث السياسية التي عرفها المتوسط خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، وبدء الحضور المغربي يبرز شيئًا فشيئًا إلى أن اتضحت معامله بعد معركة وادي المخازن، لكن هذا الحضور لم يكن حضورًا مغربيًا صرفًا، وإنما تطلب حضورًا بالإضافة، بمعنى أن المغرب كان يحتاج إلى قوة أخرى ليظهر وجوده في المتوسط، وذلك ما تجلى من خلال مجموعة من النماذج حاول فيها المغرب التقرب من دول ضد أخرى كالتقارب المغربي الإسباني ضد العثمانيين.

لذلك يمكن القول؛ أن لا أحد يجادل في أن الحضور المغرب في المتوسط تراجع بشكل مهول في القرنين الخامس عشر و السادس عشر مقارنةً مع ما كان عليه سابقًا، حيث يشير ابن خلدون إلى السيطرة المطلقة للموحدين على الحوض الغربي للمتوسط إلى حد أنه لم يكن المسيحيين يجرؤون على وضع خشبة واحدة في مياهه، وبهذا يمكن القول؛ بأن الحضور المغربي في المتوسط خلال القرن السادس عشر، لا يمكن أن يقارب الحضور العثماني أو الإسباني مثلاً، ولعل هذا ما نستشفه من قول فرنان بروديل: "يبرز هذا الأمر على نحو جلي في القرن السادس عشر الذي نحت فيه الإمبراطورية الإسبانية مستندة إلى مرتكزاتها الإمبريالية نحو السيطرة على الحوض الغربي من المتوسط سيرة كاملة ليصبح بحرًا إسبانيًا لا يمتلك المسلمين منه غير جهته الجنوبية التي ما لبثت إسبانيا أن سعت إلى اختراقها (...) هذا بينما كان (...) البحر الأيوني بحرًا عثمانيًا بامتياز".

الهَوامِشُ:

(١) فرنان بروديل، "**المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني**"، ترجمة مروان أبي سمراء، ط. ١، بيروت، المنتخب العربي، [د. ت.]، ص: ١٢٥.

(٢) عبد للمجيد قدوري، "**المغرب وأوربا مسألة التجاوز ما بين القرنين ١٥ و١٨**"، ط. ١، بيروت، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، [د.ت.]،ص: ٢٧٢.

(٣) محمد حجي، "**الحركة الفكرية في المغرب في عهد السعديين**"، ج. ١، المحمدية، مطبعة فضالة، ١٩٧٧، ص: ٣٨.

(٤) المرجع نفسه، ص: ٣٩.

(٥) عبد المجيد قدوري، س.م.، ص: ٩٧.

(٦) محمد حجي، س.م.، ص: ٤٠.

(٧) أحمد بوشرب، "**دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور**"، ط. ١، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٨٤، ص: ٣٩٠.

(٨) أحمد الهشميوي، "**الفئات الأوروبية المقيمة بالمغرب أيام السعديين**"، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الآداب تخصص تاريخ مرقونة بخزانة الكلية، ج. ١، ص.٥٢.

(٩) المؤرخ المجهول، "**تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**"، تح. عبد الرحيم ب حادة، مراكش، مطبعة تينمل، [د.ت.]، ص: ١٢.

(١٠) حسن الوزان، "**وصف إفريقيا**"، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، ط.٢، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣ ص: ٣١٩.

(١١) إبراهيم حركات، "**المغرب عبر التاريخ**"، ج. ٢، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٨٤، ص: ٢١٩.

(١٢) نفسه، ص: ١٨٤.

(*) يمكن الاطلاع على هذه الشهادات بالرجوع إلى كتاب محمد داوود "تاريخ تطوان"، ج. ١، ط. ٢، تطوان، مطبعة ....، [د.ت.]، ص: ١١٥.

(١٣) مرمول كربخال، "**إفريقيا**"، ترجمة محمد حجي وآخرون، ج. ١، الرباط، مطبعة المعارف، الجديدة، [د.ت.]، ١٩٨٤.

(١٤) أوكست كور، "**دولة بني وطاس (١٤٢٠-١٥٥٤)**"، ترجمة محمد فتحة، ط.١، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، [د.ت.]، ص: ٧٥.

(١٥) محمد داوود، م.س.، ص: ١٢٢.

(١٦)المرجع نفسه، ص: ١٢٠.

(١٧) عبد المجيد قدوري، م.س.، ص: ٧٣.

(١٨) عبد العزيز الفشتالي، "**مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**"، تح. عبد الكرم كريم، الرباط، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، [د.ت.]، ص: ١.

(١٩) محمد حجي، م.س.، ص: ٤٠.

(٢٠) محمد حجي، م.س.، ص: ٤٥-٤٦.

(٢١) نفسه، ص.ص: ٤٦-٤٧.

(٢٢) عبد المجيد قدوري، م.س.، ص: ١٧٢.

(٢٣) المرجع نفسه، ص، ١٦٨.

(٢٤) المرجع نفسه، ص، ١٦٣، ١٨١-١٨٢.

(٢٥) إبراهيم حركات، "المغرب عبر..."، م.س.، ص: ٢٥٧.

(٢٦) المؤرخ المجهول، م.س.، ص: ٥٣.

(٢٧) أحمد الهشميوي، م.س.، ص: ١٦١.

(٢٨) حسن الصقلي، "**ثقل العنصر الأجنبي**"، مذكرات من التراث المغربي، الرباط: (د.م)، ١٩٨٥، مج٣،ص٥١.

(٢٩) أحمد الهشميوي، م.س.، ص.: ١٦٣-١٦٤.

(٣٠) عبد العزيز الفشتالي، م.س.، ص: ٤٠ (أخذ من الهامش).

(٣١) نفسه، ص.ص.: (١٩٣-١٩٧).

(٣٢) المؤرخ المجهول، م.س.، ص.: ٦٥-٦٦.

(٣٣) أحمد الهشميوي، م.س.، ص.: ١٥٩-١٦٠.

(٣٤) عبد الكرم كريم، "**المغرب في عهد الدولة السعدية**"، الدار البيضاء، شركة الطبع والنشر، ١٩٩٧، ص.: ١٥- ١٦.

(٣٥) عبد المجيد قدوري، م.س.، ص.: ٢٦٤-٢٦٥.

(٣٦) عبد الكريم كريم، م.س.، ص.: ١٢-١٣.

(٣٧) محمد مزين، م.س.، ص: ١٩٧.

(٣٨) حسن الوزان، م.س.، ص: ٣١١.

(٣٩) محمد مزين، م.س.، ص: ١٩٧.

(٤٠) إبراهيم حركات، م.س.، ص: ٣٨١.

(٤١) حسن الوزان، م.س. ص.: ٣٢٦-٣٢٧.

(٤٢) إبراهيم بركات، م.س. ص: ٢١٩.

(٤٣) عبد الهادي التازي، "**التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم**"، مج. ٨،

(٤٤) محمد حجي، م.س. ص: ٤٨.

(٤٥) عبد العزيز الفشتالي، م.س. ص: ١٧٠.

(٤٦) أحمد الهشميوي، م.س. ص: ٣٨.

(٤٧) عبد المجيد قدوري، م.س.، ص.: ٦٤-٦٥-٦٦.

(٤٨) برووديل، م.س.، ص: ١٥٩.

(٤٩) عبد العزيز الفشتالي، م.س.، ص: ٢٢٩.

(٥٠) أحمد بوشرب، "**المغاربة والبحر النصف الأول من القرن السادس عشر**"، "مجلة بحوث" ، ع. ٤، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية III، المحمدية، [د.ت.] ١٩٩١، ص: ٥٤-٥٥.

(٥١) أحمد الهشميوي، م.س.، ص.: ١٣٦-١٣٧.

(٥٢) أحمد بوشرب، "**المغربة والبحر**..."، م.س.، ص.: ٥٤، ٥٨-٥٩-٦٠.